

الفصل السّاوس

التقديم والتأخير

يرتبط النظام اللغوي لأية لغة إلى حد كبير بالتكوين النفسي والبيئي والثقافي للأفراد متكلمى هذه اللغة، بحيث يصبح هذا النظام - في النهاية - انعكاسًا لطبيعة المجتمع ومزاجه وتركيباته النفسية.

والجملة في العربية تخضع لنظام معين في ترتيب مفرداتها. ويقسم النحاة الجملة إلى مسند ومسند إليه ومتعلقات الإسناد.

وإذا كان للجملة في العربية نظام مثالي في ترتيبها، فإن هذا النظام ليس مقدسًا لا يجوز المساس به، فثمة تغيرات تطرأ على طريقة الترتيب بحيث يُقدم عنصر أو يؤخر آخر، والتقديم والتأخير في الجملة العربية من المباحث المهمة التي حظيت بعناية كبيرة من قِبَل النحاة والبلاغيين، وإن غَلَبَ الذوق الجمالي القائم على التحليل اللغوي على تحليلات البلاغيين لها.

ويقسم عبد القاهر الجرجاني التقديم قسمين:

الأول: تقديم يقال إنه على نية التأخير، وَيُعْنَى به كل ما يتقدم ويظل على حكمه الذي عليه، كما في الخبر إذا قُدِمَ على المبتدأ، والمفعول عندما يتقدّم على الفاعل. **والأخرى:** تقديم يُراد به نقل الشيء عن حكمٍ إلى حكم وجعله في بابٍ غير بابهِ، فإذا قَلَبَ التركيب «ضربت زيدًا» إلى «زيد ضربته» صار «زيد» مرفوعًا بالابتداء بعد أن كان مفعولًا به^(١).

وعلى الرغم من أن في التقديم والتأخير دوافع وأهدافًا يعول عليها المنشئ سواء: أقصد أم لم يقصد، فهما لا يصلحان في كل موقف، فقد يؤديان إلى غموض المعنى وتقلب التركيب والتكلف، ولذا نرى البلاغيين - وهم يتحدثون عن شروط فصاحة الكلام - يرفضون التقديم الذي يؤدي إلى اختلال نَظْم الكلام وهو ما يطلقون عليه لفظ

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٨٢.

«التعقد»، أى «ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به»^(١)، والكتب البلاغية تمتلئ بالشواهد المتوارثة الدالة على هذا التعقيد اللفظى.

وقد ورد التقديم والتأخير في ديوان البارودى في خمسة وتسعمائة موضع، وهذا يدل على مدى ثراء هذا الجانب عنده.

وأبرز الظواهر التي كانت شائعة عند تقديم الجار والمجرور والمتعلق بمحذوف يقع خبراً على المبتدأ النكرة، أو تقديم الجار والمجرور المتعلق بالأفعال على فاعلها، وكذلك تقديم المفعول به على فاعله، أو تقدمه في صدر جملة. وثمة ظواهر لم تكن تتعدى البيت الواحد عنده، مثل تقديم الحال على صاحب الحال.

وينقسم البحث في ظواهر التقديم والتأخير في شعر البارودى إلى ثلاثة أقسام:
أولاً: السمات العامة، مثل تقديم المفعول به، وتقديم الحال، وتقديم المفعول لأجله، وتقديم الجار والمجرور...

ثانياً: السمات الخاصة، مثل تأخير الفاعل ووقوعه مقطوعاً للبيت، وتأخير الفاعل ووقوعه بين المفعول الأول والمفعول به الثاني، وتأخير المفعول به ووقوعه مقطوعاً للبيت.
ثالثاً: التقديم في التركيب الشرطي، ويتمثل في تقديم الاسم على الفعل.
• أولاً: السمات العامة المتعلقة بالتقديم والتأخير:

١- تقديم المفعول به:

وقد ورد ذلك في مائة واثنين وأربعين موضعاً.
وتتعدد صور ظاهرة تقديم المفعول به، وتتعدد تبعاً لذلك الأهداف والغايات. ويمكن تقسيم تلك الظاهرة إلى الصور التالية:

الصورة الأولى: المفعول به المقدم أعظم شأنًا من الفاعل، كما في قوله:

فَإِنْ يَكُ قَارَفَتُ الرِّضَا قَلْبِعَدَمَا

صَجِبْتُ زَمَانًا يُفْضِبُ الحُرَّ عَبْدُهُ^(٢)

فالمفعول به المقدم «الحر» والفاعل «عبد».

(١) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٥٥، وانظر: ابن سنان الحفاجي، سر الفصاحة، ص ١٠١.

(٢) الديوان، ج ١، ص ١٩٢.

الصورة الثانية: المفعول به المقدم أشمل من الفاعل، كقوله:

فَبِتُّ أَيْهِ السَّوْمِ إِذْ كَانَ صَاحِبِي وَأَخْرَسُهُ، إِنِّي لَدَى الْخَوَافِ حَارِسُ
لَدَى مُوْطِنٍ لَا يَضْحَكُ الْمَرْءُ قَلْبُهُ حَذَازًا، وَلَا تُنْرَى إِلَيْهِ الْهَوَاجِسُ^(١)

فالفاعل «قلب» جزء من المفعول «المَرْء»، أى أن المفعول «كل» والفاعل «جزء».
الصورة الثالثة: المفعول به واقعا في أسلوب استثناء، كقوله:

لَا يَنْدِرُكَ الْمَجْدُ إِلَّا مَنْ إِذَا هَتَفْتَ بِهِ الْحَمِيَّةُ هَزُّ الرُّفْحِ وَأَنْتَضَبَا^(٢)

فالتركيب السابق - وهو استثناء مفرغ - يقتضى تأخير الفاعل وهو «مَنْ».
الصورة الرابعة: المفعول به واقعا في أسلوب استفهام، كما في قوله:

وَكَيْفَ نَجَى مِنْ هَوَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَيَعْرِفُ مَعْنَى الشُّوقِ مَنْ لَمْ يُفَارِقِ^(٣)

فتقديم المفعولين في شطري البيت «سر الهوى» و«معنى الشوق» يحدث نوعا من التشويق، ولو قلب التركيب إلى صورته المثالية هكذا:

وَكَيْفَ نَجَى أَهْلُ الْهَوَى مِنْهُ وَيَعْرِفُ مَنْ لَمْ يُفَارِقِ مَعْنَى الشُّوقِ

لانفتت منه الإثارة الذهنية التي بالتركيب الأول.

الصورة الخامسة: المفعول به المقدم اسم موصول، كقوله:

فَأَيُّ عَارٍ بِالْحُمُولِ عَلَى مَا شَاءَهُ السَّيْفُ مِنْ فَعْرِ عَلَى زَحْلِ^(٤)

وتقديم المفعول به «أى»، وهو اسم موصول جاء على هيئة استفهام توبيخى، يأتى بهدف المبالغة في وصف العار.

الصورة السادسة: تقديم المفعول به بحيث يودى قلب التركيب إلى صورته المثالية إلى إحداث خلل به، كما في قوله:

فَقَدْ شَبَّ الْهَوَى مِنْ زَامٍ نَضَجَى وَأَغْرَى فِي الْمَحَبَّةِ مَنْ نَهَانِي^(٥)

ويتضح الخلل عند تحويل التركيب المتمثل في صدر البيت إلى صورته المثالية كما يلي:

(١) الديوان، ج٢، ص ١٦٩.

(٢) الديوان، ج١، ص ١١٦.

(٣) الديوان، ج٢، ص ٣٥٩.

(٤) الديوان، ج٣، ص ٢٤.

(٥) الديوان، ج٤، ص ٥٧.

«من رام نصحى فقد شب الهوى»، ويعود هذا الخلل - أساسًا - إلى الانفصال الحادث بين التركيبين، «من رام نصحى»، و«فقد شب الهوى» - على الرغم من وجود الفاء الرابطة - بحيث قد يفهم أن «الهوى» فاعل «شَبَّ»، وهو في الأصل مفعول به، أما الفاعل فهو «مَنْ».

الصورة السابعة، تقديم المفعول به في صدر البيت وعجزه معًا، مما يؤدي إلى التجانس اللفظي بين شطرى البيت والمزاوجة بينهما، ويخلق - في النهاية - نوعًا من الموسيقى قائمة على التماثل في التركيب بين الصدر والعجز، كما في قوله:

يَمْرُقُ اسْتَارَ النَّوَاطِرِ بَرْقُهُ وَيَفْرَعُ أَصْدَافَ الْمَسَامِعِ رَغْدُهُ^(١)

فتمة تقابل بين «أستار»، و«أصداف» من حيث دلالة كل منهما على الإخفاء، وتقابل ضدى بين «النواظر»، و«المسامع»، ثم تقابل آخر بين «برق»، و«رعد». كذلك فصدر البيت وعجزه يتماثلان تمامًا في التركيب - بإغفال واو العطف في أول العجز - إذ يتكون كل منهما من:

فعل مضارع + مفعول به + مضاف إليه + فاعل + مضاف إليه.

الصورة الثامنة: تقديم المفعولين، كما في قوله:

وَلِيٍّ مِنْ بَدِيْعِ الشُّغْرِ مَا لَوْ تَلَوْتَهُ عَلَيَّ جَبَلٍ لِأَنَّهُ لَافٍ فِي الدَّوْرِ زَيْدُهُ

إِذَا مَا تَلَاةٌ مُنْشِدٌ فِي مَقَامِهِ كَفَى الْقَوْمَ تَرْجِيْعَ الْغِنَاءِ نَشِيدُهُ^(٢)

وتتضاءل - هنا - أهمية الفاعل «نشيد» إلى حد أنه يمكن حذفه دون أن يتأثر المعنى، إذ إن الكلام قد تمَّ بلفظة «الغناء» ثم زاد «نشيده» اضطرارًا لمراعاة القافية.

٢- تقديم الحال على صاحبها:

ويجىء في موضع واحد هو:

وَأَصْبَحْتُ مَغْلُوبَ الرُّشَادِ، وَقَلَمًا

بَعُوذُ زَيْدًا صَالِحَ الْعَقْلِ مِنْ بَعُوذِي^(٣)

(١) الديوان، ج١، ص ١٩٥.

(٢) الديوان، ج١، ص ٢٣١.

(٣) الديوان، ج٤، ص ١٩٣.

والتقديم - هنا - معنى التأكيد على المعنى الذي يبرزه الحال، ودليل ذلك أن الحال قد تعدد، وأن الحالين «رشيداً» و«صالح العقل» يستلزم وجود أحدهما وجود الآخر لفظاً أو تقديرًا.

٣- تقديم المفعول لأجله على الفاعل،

ويقع ذلك في موضعين.

يقول في أحدهما،

وَسَنَسْتُ الْوَزَى بِالْعَدْلِ حَتَّى نَشُوقًا

إنهك النوى جيد الدهورِ القدايم^(١)

فثمة تركيز على علة التواء الدهور بالمفعول لأجله «تشوقاً»، وعلى أن هذا الشوق لم يكن إلا «إليك». ويلاحظ غرابة ورود المفعول لأجله بعد «حتى».

ويقول في الموضع الثاني،

نَغْفُو عَنْ اللَّئِبِ حَتَّى يَسْتَوِيَ كَرَمًا لَنَّهُ ذُو الْعَمَلِ الْمَبْرُورِ وَالْجَانِي^(٢)

وفيه تأكيد على صفة الكرم باستخدام المفعول لأجله «كرماً»، وعلى مصدر هذا الكرم «لديه».

ويعنى هذا أن تقديم المفعول لأجله يبرز سبب الحدث، وأن الجار والمجرور والظرف والمضاف إليه، بأتيان لإظهار مصدر الفعل أو منبئه أو اتجاهه. والمعنى: أن تساوى ذى العمل المبرور والجاني عند الله يعود إلى ما يتصف به الله من كرم.

٤- تقديم المفعول به والمفعول لأجله على الفاعل،

وتأتي هذه الظاهرة في موضع واحد هو،

فَأَهْمَلِ الْأَرْضَ جِرًّا الظُّلْمِ حَارِثُهَا وَاسْتَرْجِعْ لِلَّالِ خَوْفَ الْغَدَمِ تَاجِرُهَا^(٣)

فالمفعول به، «الأرض» - في صدر البيت - و«المال» في عجزه، والمفعول لأجله: «جرا الظلم» - في الصدر و«خوف الغدم» في العجز. وتقديم المفعول به والمفعول لأجله في

(١) الديوان، ج٣، ص ٣٠٧.

(٢) الديوان، ج٤، ص ١٤٩.

(٣) الديوان، ج٢، ص ١٤٣.

شطرَي البيت أدى إلى التماثل التركيبي التام، إذ إن كل شطر يتكون من:
فعل ماض + مفعول به + مفعول لأجله + فاعل + مضاف إليه.

كما أن تقديم المفعول به والمفعول لأجله يدل على أهميتهما، فالتركيز - من حيث المعنى - على «إهمال الأرض» و«استرجاع المال»، وهما المعنيان اللذان يبرزهما الفعل والمفعول به في صدر البيت وعجزه، ثم بيان السبب في كلتا الحالين بالمفعول لأجله في كل.

٥- تقديم المفعول به والتمييز على الفاعل.

ويقع ذلك في موضع واحد هو:

أَرْجُ النَّبَاتِ، كَأَنَّمَا غَمَزَ الثُّرَى طَيْبًا مَرُورُ «الْحَضْر» بَيْنَ أَكَامِهِ^(١)

وتقدم كل من المفعول به «الثرى» والتمييز «طيّبًا» يثير الذهن للتفكير في الفاعل، والفارق بين هذه الظاهرة وسابقتها يكمن في أن الفاعل في الأولى ليس ذا أهمية كبيرة، فالمعنى المراد بيانه فيها، أن الأرض أهملت بسبب الظلم، وأن المال استرجع خوف الفقر، أما في هذه الظاهرة فالفاعل يضيف الجديده إلى المعنى، فالذي غمر الثرى طيبًا مرور الحضّر، فالطيب - إذن - مبارك، أى أن ذُكِرَ الفاعل - هنا - يكسب المعنى مزية.

٦- تقديم المفعول به والجار والمجرور:

وترد هذه الظاهرة في أربعين موضعًا.

وتتسم هذه الظاهرة بسمتين أساسيتين:

الأولى: أن تقديم المفعول به يبرز أهميته في السياق.

الثانية: أن مجيء الجار والمجرور متقدمًا إنما هو للتفصيل والتوضيح وإزالة الإبهام.

وهاتان السمتان تتضحان في البيت التالي:

وَلَوْ أَنَّ سَبَابَ السِّيَادَةِ بِالْعِنَى لَكَانَتْ رَبُّ الْفَضْلِ بِالمَالِ تَاجِرٌ^(٢)

ف«رب الفضل» - وهو المفعول به - أعظم مكانةً من التاجر - وهو الفاعل. ويقوى

هذا الاستنتاج - هنا - تنكير كلمة «تاجر» الذي أفاد التحقير.

(١) الديوان، ج٣، ص ٥٧١.

(٢) الديوان، ج٢، ص ٩٨.

أما الجار والمجرور «بالمال»، وهو مفعول به محول إلى جار ومجرور، فهو يحدّد ويفضّل، وبحدفهما يغمض المعنى، فهل كاتر التاجر ربّ الفضل بالولد أم بالعلم أم بالعافية؟.....؟

ويبرز الحكمين السابقين البيت التالي،

قَدَفْتَهَا إِلَى الْبَطُونِ ظَهْوَرٌ وَحَوَتْهَا بَعْدَ الظُّهُورِ بَطُونٌ^(١)

ففي صدر البيت - وهو ما يبرز تلك الظاهرة - يقصد بالضمير في «قذفتها» - وهو المفعول به - النُطفة وهي أول مراحل خلق الإنسان وأههما.

كما أن الجار والمجرور - إلى البطون - يحدد موضع القذف،

إلى الأرض .. إلى الجبال .. إلى أسفل .. إلى أعلى ..

وفي إطار هذه الظاهرة التي قوامها أربعون بيتًا نجد أن هناك عشرين موضعًا كان المفعول فيها ضميرًا متصلًا - كما في البيت السابق - منها اثنا عشر موضعًا كان المفعول به الضمير باء المتكلم، وهذا يؤكد أن المفعول به - الاسم الظاهر أو الضمير المتصل - يتقدم لأهميته. على أن المفعول به إذا كان ضميرًا متصلًا والفاعل اسمًا ظاهرًا وجب تأخير الفاعل.

٧- تقديم المفعول به والحال والجار والمجرور على الفاعل،

وَيَرْدُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَهُوَ:

فَلَيْسَ بَجَنِي ثِمَارِ الْفَوْزِ بَانِعَةٌ مِنْ جَنَّةِ الْعَلَمِ إِلَّا صَادِقُ الْهَمِّ^(٢)

والبيت - بوصفه أسلوب قصر - يقصر جني ثمار الفوز وهي بانعة على صادق الهمم، ومغزى التقديم - هنا - أنه يؤكد على الجنى وبين حاله وطبيعته، لذلك كان تقديم المفعول به «ثمار»، والحال «بانعة»، والجار والمجرور «من جنة...»، كما أن تأخير الفاعل يحدث نوعًا من التشويق.

٨- تقديم المفعول به والظرف والمضاف إليه على الفاعل،

ويجىء في ستة مواضع.

(١) الديوان، ج ٤، ص ١٢١.

(٢) الديوان، ج ٣، ص ٢٦٣.

ويتقدم المفعول به - في هذه الظاهرة لأهميته، أما الظرف والمضاف إليه فتقدمهما قد يكون للتأكيد على التحديد الزمني، كما في قوله:

رَدُّ الصَّبَا بَعْدَ شَيْبِ اللَّمَّةِ الْغَزْلُ وَرَاحَ بِالْجِدِّ مَا يَأْتِي بِهِ الْهَزْلُ^(١)

فثمة تقديم للمفعول به «الصبا»، إذ إن معنى رد الصبا هو الأكثر أهمية من بيان أن مَا رَدُّ هذا الصبا هو الغزل. أما الظرف والمضاف إليه «بعد شيب اللمة» فتقدمهما يشير إلى التركيز على زمن الحدث.

كذلك قد يؤكد الظرف والمضاف إليه على التحديد المكاني، كما في قوله:

وَأَنَّى أَمْرُو لَأَسْتَكِينُ لِبِصُولِهِ وَإِنْ شَدَّ سَابِقِي دُونَ مَسْعَايَ قُدَّةً^(٢)
أى: قبل الوصول إلى مسعاى.

٩- تقديم الظرف والمضاف إليه وجملة الشرط.

ويرد ذلك في موضع واحد هو:

بِرَافِقْنِي عِنْدَ الْخُطُوبِ إِذَا عَرْتُ جَوَادًا، وَسَيْفٌ صَارِمٌ، وَجَفِيرٌ^(٣)

هنا يضاف إلى التحديد الزمني في قوله: «عند الخطوب» التعليق الشرطي باستخدام جملة الشرط «إذا عرت».

والتركيب، يرافقتني عند الخطوب إذا عرت .. جواد

يُكُونُ تَرْكِيبًا شَرْطِيًّا كَامِلًا، وِبِرَاجَاعِ عُنَاوَرِهِ إِلَى صَوْرَتِهَا الْمَثَالِيَةِ، تَصْبِحُ كَمَا يَلِي:

إذا عرت الخطوب يرافقتني عندها جواد

أما هذا التشابه بين العناصر فيدل على أن الأهمية تتوزع بينها جميعًا، بحيث لا يتميز عنصر على آخر.

١٠- تقديم الجار والجرور وجملة الشرط،

ويأتى هذا في موضع واحد هو:

بِحَفِيكَ مِنْهُ إِذَا أَحْسَنَ بِنَبَاةٍ شَدَّ كَمَنْعَةِ الْأَبَاءِ الْمُوقِدِ^(٤)

(١) الديوان، ج٣، ص ١٥١.

(٢) الديوان، ج١، ص ١٩٣.

(٣) الديوان، ج٢، ص ٢٠.

(٤) الديوان، ج١، ص ٢٠١.

فالجار والضمير الذي في محل جر «منه» بشيران إلى تحديد المصدر، فالكفاية هي من الحصان، الذي يتحدث عنه، لا من غيره، والشرط يفيد التعليق.

١١- تقديم الظرف والمضاف إليه على الفاعل،

ويجيب ذلك في سبعة وثلاثين موضعًا.

وتقديم الظرف والمضاف إليه في هذه الظاهرة ذو هدف واحد من هدفين:

إما التركيز على الحالة المكانية، وإما التركيز على الحالة الزمانية.

ويوضح الهدف الأول قوله،

وَتَرَنَّمْتَ فَوْقَ الْأَرَاكِ حَمَامَةً تَصِفُ بِلِسَانِ صَبٍّ مُوَلِّعٍ^(١)

فالظرف والمضاف إليه «فوق الأراك» يبرزان مكان الترنم. ويظهر الهدف الآخر قوله،

وَكَيْفَ تَلْدُ بَعْدَ الشَّيْبِ نَفْسِي؟ وَفِي اللَّذَاتِ إِنْ سَنَحَتْ غَذَائِي^(٢)

إذ حدّد الظرف والمضاف إليه «بعد الشيب» زمان الحدث. إذن يمكن القول: إن

التقديم في هذه الظاهرة يكون بغرض إظهار البعد المكاني أو البعد الزماني للحدث.

١٢- تقديم الظرف والحال والجار والمجرور على الفاعل،

ويرد ذلك في موضع واحد هو،

وَكَيْفَ يَمِشُّ الذَّنْرَ مَخْلُؤًا مِنَ الْأَسَى سَقِيمٌ يُغَادِي بِالْهُمُومِ وَيُنْطَرِقُ^(٣)

إذ تقدم الظرف «الدهر»، والحال «خلو»، والجار والمجرور «من الأسى»، وتقديم هذه

العناصر يعنى التركيز على ما بها من معانٍ والتنبيه إليها.

١٣- تقديم الجار والمجرور،

وعدد مواضع هذه الظاهرة خمسمائة واثان وثلاثون موضعًا.

وبلغت النظر في ظاهرة تقديم الجار والمجرور الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها

عند البارودي، يقول،

زَهَتْ الْقُلُوبُ بِنُورِ حِكْمَتِهِ وَتَعَطَّرَتْ بِالذَّنْرِ أَقْوَاهُ^(٤)

(١) الديوان، ج٢، ص ٢٥٣.

(٢) الديوان، ج١، ص ١٠١.

(٣) الديوان، ج٢، ص ٣٥٦.

(٤) الديوان، ج٤، ص ١٨٢.

وتقديم الجار والمجرور - في عَجَز البيت - يؤكد أن الذكر هو مصدر العطر، وأن هذه الأفواه لم تتعطر بشيء غيره، خاصة أن المقصود بالذكر ذكر الله تعالى.

وقد يشير الجار والمجرور إلى التحديد المكاني، كما في قوله،

وَكَيْفَ أَكْتُمُ أَشْوَالِي
أَمْ كَيْفَ اسْتَلُّوْا وَلِي قَلْبٌ إِذَا التَّهَبْتُ
بِالْأَفْوَاهِ لِنَمْعَةٍ يَرْزُقُ كَادَ يَلْتَهَبُ؟^(١)

وقد يتصل بحرف الجر ضمير، كما في قوله:

هَهِنَاءَ مَالٍ بِهَا النَّعِيمُ، فَحَطَّوْهَا
دُونَ الْقَطَاءِ، وَنُطِقْهَا إِيْمَاءُ^(٢)
وقد يكون هذا الضمير ضمير المتكلم، كما في قوله:

يَا رَبُّ! طَالَ بِي شَوْقِي إِلَى وَطَنِي
فَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ - فِي الْمَوْضِعِينَ - مُؤَكَّدٌ لِلْمَعْنَى
فَاخْلُ وَفَالِي، وَالْحَقِيقِيُّ بِأَشْبَاهِي^(٣)

وقد يتعدد الجار والمجرور للتأكيد والتحديد والتفصيل، كما في قوله:

فَحَلِّ هَذَا، وَتَحَذِّ فِي وَصْفِ غَائِبَةٍ
سَرَّتْ بِحُلُوفَانِ فِي قَلْبِي سَوَابِهَا^(٤)

١٤- تقديم الجار والمجرور وللفعول به،

وعدد مواضع هذه الظاهرة عشرة مواضع.

ويسترعى الانتباه في هذه الظاهرة أربعة أمور:

الأول: أنه لم يرد اسمٌ مجرور بعد حرف الجر في كل هذه المواضع، بل ورد ضمير مبني في محل جر.

والثاني: أن خمسة ضمائر من العشرة هي ضمير المتكلم الذي يعود إلى الشاعر.

والثالث: أن استخدام ضمير المتكلم في هذه المواضع الخمسة لم يأت إلا في الفخر.

والرابع: أنه لم يُستخدم في المواضع التي كان فيها الضمير للمتكلم إلا الفعل «أبي»

الذي يلائم تمامًا غرض الفخر. يقول:

وَكَمْ مِنْ نَبِيٍّ لَللَّهِ عِنْدِي وَنِعْمَةٌ
بَعْضُ عَلَيْنَهَا كَفَهُ الْحَاسِدُ الْوَلُغْدُ^(٥)

(١) الديوان، ج١، ص ١١١.

(٢) الديوان، ج١، ص ٦٦.

(٣) الديوان، ج٤، ص ١٨٠.

(٤) الديوان، ج٤، ص ١٦٦.

(٥) الديوان، ج١، ص ٢١٣.

ويقول:

مَأْتُوا كِرَامًا، وَأَهْبُوا لِلْغَلَا الزَّا نَأَلَتْ بِهِ شَرْفَ الْحُرْتِةِ الْأَمَمِ^(١)

ففي هذين الموضعين نلاحظ أن الجار والمجرور يأتي لتأكيد المعنى وتقويته، كما أن المفعول به يتقدم لأهميته.

أما المواضع التي كان فيها الضمير المتصل بحرف الجر للمتكلم فهي:

أَبَتْ لِي حَمَلِ الضَّمِيمِ نَفْسَ أَبِيئَةٍ وَقَلْبَ إِذَا سِيمِ الْأَذَى شَبَّ وَقَدُهُ^(٢)

وقوله:

وَأِنِّي أَهْرُوه تَأَمَّى لِي الضَّمِيمِ ضَوْلَةٌ مَوَاقِعُهَا فِي كُلِّ مُغْتَرِكٍ حَمْرٌ^(٣)

والبيت التالي:

تَأَبَا لِي الضَّمِيمِ نَفْسَ حُرَّةٍ وَهَدٌ اطَاعَهَا الْمُزْهَفَانِ الشَيْفُ وَالْقَلَمُ^(٤)

وهذا البيت:

يَأْتِي لِي الْغَى قَلْبٌ لَا يَهْمِلُ بِهِ عَنْ شِرْعَةِ الْمَجْدِ سِخْرَ الْأَغْنِيَنِ النَّجْلِ^(٥)

وهذا - أيضاً:

فَاظْلُبْ لِنَفْسِكَ غَيْرِي، إِنِّي رَجُلٌ يَأْتِي لِي الْعَدْرُ أَحْوَالٌ وَأَعْمَامٌ^(٦)

ففي هذه المواضع الخمسة نلاحظ أن المفعول به المقدم هو «الضميم» في الأبيات الثلاثة الأولى، و«الغى» في البيت الرابع، و«العدرة» في البيت الخامس، وأن الفاعل على الترتيب، «نفس»، و«صولة»، و«نفس»، و«قلب»، و«أحوال». فالمفعول به المقدم مما تعافه النفوس، والفاعل ذو شأن.

إذن، يمكن الجزم بأنه إذا كان تقديم الجار والمجرور - هنا - للتأكيد فإن تقديم المفعول به للتحقير.

(١) الديوان، ج٣، ص ٥٤٠.

(٢) الديوان، ج١، ص ١٩٣.

(٣) الديوان، ج٢، ص ١٤٩.

(٤) الديوان، ج٣، ص ٥٣٦.

(٥) الديوان، ج٣، ص ٦.

(٦) الديوان، ج٣، ص ٤٦٩.

١٥- تقديم الجار والمجرور والمفعول لأجله على الفاعل،

ويأتي في موضع واحد هو،

رَجَحَ الْجَدِيدُ لِإِمْضِرِهِ وَأَثَتْ طَلَانِعُ نَضْرِهِ
وَتَهَلَّلْتُ بِقُدُومِهِ فَرِحًا أَسْرَةً عَضْرِهِ^(١)

فالمراد إثبات قدوم الجديد والتأكيد على معنى الفرح بعودته، والمعنيان يبرزهما الجار والمجرور والمفعول لأجله.

١٦- تقديم الجار والمجرور في الجملة المبنيّة للمجهول،

ويرد في ستة مواضع.

ويهدف تقديم الجار والمجرور في هذه الظاهرة إلى التنبيه إلى المعنى الذي يبرزه هذا التقديم، ويتضح ذلك في قوله،

وَهَلْ فِي التَّحْلِ بِالكُنَى مِنْ فَضِيلَةٍ إِذَا لَمْ تَزَيْنِ بِالْفَعَالِ الطَّبَانِعِ؟^(٢)
فهو ينبه إلى أن التزين لا يكون إلا بالفعال الحميدة.

ويقول عن الخمر،

نُزِفُ بِالْحَنِّ الْمَثَانِي كُنُوسَهَا كَمَا زُفَتْ الْخُسْنَاءُ بِالطَّبْلِ وَالزُّمْرِ^(٣)
يؤكد على أن زف الكنوس إلى شاربي الخمر لا يتم إلا بالحن المثاني.

ثانيًا: السمات الخاصة المتعلقة بالتقديم والتأخير؛

يتسم ديوان البارودي بسمات خاصة في التقديم والتأخير، تأتي في معظمها تحقيقًا لغايات جمالية، وقد تكون ذات ارتباط بالمعنى، وقد تجيء للحفاظ على قافية البيت، أو للتشويق، أو الاختصاص. وقد يؤدي هذا التقديم والتأخير إلى خلل في التركيب ناتج عن سوء ترتيب لعناصر البيت. ومن أبرز تلك السمات،

١- تأخير الفاعل ووقوعه مطلقًا للبيت،

يقول:

تَكْتَفِنُ بِمَثَالٍ مِنَ الْحُسْنِ زَالِمًا يُجِنُّ جُنُونًا حَيْدُ رُؤْيَيْهِ الْعَقْلِ^(٤)

(١) الديوان، ج٢، ص ١٢٣.

(٢) الديوان، ج٢، ص ٢٢١.

(٣) الديوان، ج٢، ص ١٢٩.

(٤) الديوان، ج٣، ص ٤٧.

تأخر الفاعل «العقل» وتقدم المفعول المطلق «جنونا»، والظرف والمضاف إليه «عند رؤيته»، ووقع الفاعل مقطوعاً للبيت.

وهدف التأخير - هنا - التركيز على معانى العناصر التي تقدمت، والحفاظ على القافية. وربما يكون تأخير الفاعل «العقل» دلالة على تأخره في العمل عند الجنون، أى أن ثمة علاقة بين تأخر الفاعل - في السياق - والتأخير الفعلي عند الجنون.

٢- تأخير الفاعل ووقوعه بين للمفعول الاول وللمفعول الثاني.

يقول:

فألبيست باسمين الخدَّ خجلتُه وزداً جنيباً. جَنَاءُ زَائِدُ الْمُقْلِ^(١)

أى: فألبست خجلتُه باسمين الخد ورداً.

وتقدم المفعول به الأول «باسمين الخد»، لأنه أحق بالانتباه.

٣- تأخير المفعول به في الجملة الطلبية ووقوعه مقطوعاً للبيت.

يقول:

أُهْمَا الظَّالِمِ! هَبْ لِي مَرَّةً مِثْلَكَ الْعِدَالَةَ^(٢)

وتأخير المفعول به «العدالة» يأتي بغرض المحافظة على القافية. وربما يكون تأخير «العدالة» في السياق مرتبطاً بتأخير تحققها عند هذا الظالم، أى أن الواقع اللغوى يشير إلى الواقع الحياتى.

٤- تقديم المفعول به على اسم الفاعل الذي يعمل عمل فعله.

يقول:

كَفَلِ الشَّقَاءَ لِمَنْ أَنَاخَ بِرَبِّهِ وَكَفَىٰ ابْنَ آدَمَ بِالْمَصَائِبِ كَافِلاً^(٣)

أى: «وكفى بالمصائب كافلاً ابن آدم».

وتقديم المفعول به «ابن» على اسم الفاعل الذي يعمل عمل فعله «كافلاً» الذي يقع

مقطوعاً للبيت أدى إلى سوء في الترتيب.

(١) الديوان، ج٣، ص ٢٢٧.

(٢) الديوان، ج٣، ص ١٩٤.

(٣) الديوان، ج ٣ ص ٢١٠.

٥- تقديم الجار والمجرور في اسلوب القصر:

ويأتى ذلك في ثمانية مواضع:

يقول:

إِلَيْكَ اسْتَثَرْتُ الْعَيْنَ مَخْلُوءَةَ الْعُرَا وَفِيكَ زَعَيْتُ النُّجْمَ زَعَى السَّوَائِمِ^(١)

وطريقة القصر في شطرى البيت تقديم الجار والمجرور، أى تقديم ما حقه التأخير في قوله: «إليك استثرت»، «فيك رعيت»، مما يؤدي إلى القصر أو الاختصاص، أى من أجل حبيته وحدها استثار العين... وبسببها فقط رعى النجم رعى السوائم. ويقول:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو نَظْرَةَ مَا تَجَاوَزَتْ حَمَى الْعَيْنِ حَتَّى أَوْرَدْتَنِي الْمَهَابِيَا^(٢)

فتقديم الجار والمجرور «إلى الله» يفيد قصر بث الشكوى على الله، واختصاص الله وحده بالشكوى دون أحد سواه.

٦- تقديم الخبر في الجملة الاسمية:

يقول عن البحر:

قَلِيلٌ عَلَى عَهْدِ الْإِخَاءِ ثَبَاتُهُ فَأَسْفَلُهُ عَالٍ، وَعَالِيهِ سَاقِلٌ^(٣)

أى «ثباته على عهد الإخاء قليل». وتقديم الخبر «قليل» يعنى التنبيه إلى ما يحمله من معانٍ، فهو يريد التنبيه إلى قلة ثبات البحر، لا إلى وجود الثبات، ولو عكس وقال: «ثباته على عهد الإخاء قليل» لكان التركيز على وجود الثبات، لا على قلته.

٧- تأخير الخبر والإتيان به بعد أربعة أبيات:

يقول:

فَمَا رَوْضَةٌ غَنَاءٌ بَاكَرَهَا الْحَيَا بِأَوْطَفِ سَاجٍ، أَشْغَلَ الرَّبْقِ سَاجِمٌ^(٤)

يَضُوعُ بِهَا نَشْرُ الْعَبِيرِ، فَتَفْتَدِي تَقَاسَمَهُ فِينَا أَكْفُ النَّوَاسِمِ

إِذَا الشَّمْسُ لَاحَتْ مِنْ حِلَالِ ظِلَالِهَا عَلَى الْأَرْضِ، لَاحَتْ مِثْلَ دُورِ النَّزَاهِمِ

(١) الديوان، ج٣، ص ٢٩٠.

(٢) الديوان، ج٤، ص ٢٢٠.

(٣) الديوان، ج٣، ص ١٨٧.

(٤) الديوان، ج٣، ص ٣١٠.

فَمِنْ أَرْزَدَ سَاجٍ، وَأَحْوَزَ بَاغِمٍ
إِذَا الْعُودُ ضَمَّتْهُ أَكْفُ الْعَوَاجِمِ^(١)

بِقِيلِ بِهَا سِزْبُ الْمَهَا وَهُوَ آمِنٌ
بِالطَّفِ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ
والجملة هي «فما روضة.. بالطف..»

و«ماء نافية، والباء في «بالطف» زائدة.

وتأخير الخبر بهذه الصورة، ووقوع هذه التراكيب المتعددة بين المبتدأ وخبره ينسيان المرء أن ثمة خبراً ينبغي انتظاره.

٨- تأخير مقول القول والإتيان به بعد خمسة أبيات،

يقول:

رَبَاخُ الْكَرَى، مِيلِ الطَّلَى وَالْعَمَامِمْ^(٢)
عَلَى مَا تَرَاهُ، دَائِمَاتِ الْمَنَامِمْ
تَجُنُّ إِلَى (إِلْف) قَدِيمِ مُصَارِمِ
فَتَمَرِّقُ شُغْنًا مِنْ فِجَاجِ الْمُخَارِمِ
فَمِنْ رَازِحِ مُغْسَى، وَأَحْمَرِ رَازِمِ
بِكُلِّ فَتَى لِلنَّسِينِ أَغْيَزِ سَاهِمِ^(٣)
بَلِّمِ الْحَصَى بَيْنَ النَّوَى فَالْتَعَانِمِ

أَقُولُ لِرَكْبٍ مَذْجِينٍ، هَدَّتْ بِهِمْ
تَجِدُّ بِهِمْ كَوْمُ الْمَهَارِي لَوَاغِبَا
تُصْبِخُ إِلَى رَجْعِ الْخُدَاءِ، كَأَنَّهَا
وَيَلْحَقُهَا مِنْ زَوْجَةِ السُّوْطِ جِئَةٌ
لَهْنٌ إِلَى الْخَادِي الْبِفَاتَةِ وَإِمِقِ
أَلَا أَيُّهَا الرُّكْبُ الَّذِي خَاَمَرَ السُّرَى
قِفَابِي قَلِيلًا، وَأَنْظُرَا بِي، أَشْتَفِي

فقوله: «ألا أيها الركب... قفا بي...» هو مقول القول في البيت الأول:

وهذا التأخير يجعل المتلقى يستغرق في الأبيات والتراكيب الواردة بين القول ومقوله.

وينسى أن هناك مقولاً للقول.

وهذه الظاهرة - وكذا سابقتها - تدل على حضور ذهن الشاعر وتيقظه، فعلى الرغم

من كثرة التراكيب المعترضة، سواء بين المبتدأ وخبره أم بين القول ومقوله، إلا أنه كان

منتبهاً للبنية النحوية في السياق الشعري.

٩- تقديم المتعلقة وتأخيرها يؤدي إلى ثقل في التركيب،

يقول:

(١) الديوان، ج ٣، ص ٣١٢.

(٢) الديوان، ج ٣، ص ٢٩١.

(٣) الديوان، ج ٣، ص ٢٩٤.

صوارخ، لا يهدأن إلا مع الضحا
 من الشر، في بيت من الخير محال^(١)
 فـ«من الشر» متعلق بـ«صوارخ»، و«في بيت» متعلق بها - أيضاً. و«من الخير» متعلق
 بـ«بيت» و«محال» نعت له. وترتيب البيت: «صوارخ من الشر، في بيت محال من
 الخير، لا يهدأن إلا مع الضحايا»^(٢).

١٠- التقديم والتأخير في التعبير الجاهز،
 بقول:

فهبها مجتمِعَ شملُهُ
 إن أضدَرَ القَوْلَ بهَا أوْردًا^(٣)
 فحدث قلب في التعبير الجاهز «إذا أورد أمر أصدره»، أي إن بدأ أمرًا أتمه^(٤).

ثالثاً: التقديم في التركيب الشرطي؛

تقديم الاسم على الفعل،
 تعد قضية تقديم الاسم على الفعل في التركيب الشرطي من القضايا الجديدة بالبحث
 والدراسة، ذلك أن ثمة خلافاً حول ولاية الفعل أداة الشرط، فمنهم من يرى «أن حروف
 الجزاء يقبح أن تتقدم الأسماء فيها الأفعال»^(٥)، لأن هذه الحروف قد يفارقها الجزاء
 فتتحول إلى أدوات استفهام أو إلى أسماء موصولة.

وتستثنى من أدوات الشرط «إن»، لأنها أم أدوات الشرط، ولأنه لا يفارقها الجزاء
 خلافاً لبقية أخواتها، تماماً كما هو الحال في حروف الاستفهام، إذ إنه يقبح أن يليها
 الاسم إذا ورد الفعل بعده فيما عدا همزة الاستفهام؛ لأنها الأصل فيه^(٦).
 ويرى البعض أن هناك فعلاً محذوفاً يفسره الفعل الظاهر بعد الفاعل. ونرى أنه
 ليس ثمة حذف، وإنما تقديم للاسم على الفعل. ونقول ذلك محتكمين إلى سياق حتى
 لا نلجأ إلى التأويلات والتفسيرات التي قد يبدو فيها شيء من التكلف.

(١) الديوان، ج٣، ص ٢٥٠.

(٢) انظر شرح البيت بالديوان ج٣، ص ٢٥٠.

(٣) الديوان ج١، ص ٢٧٥.

(٤) انظر شرح البيت بالديوان، ج١، ص ٢٧٥.

(٥) انظر، سيبويه، الكتاب، ج٣، ص ١١٢.

(٦) انظر، المبرد، المقضب، ج٢، ص ٧٢.

وتقديم الاسم على الفعل في التركيب الشرطى - كما وُزِدَ عند البارودى - ذو وجهين:
 الوجه الأول: تقديم الاسم على الفعل في جملة الشرط المتصدرة للتركيب الشرطى.
 الوجه الثانى: تقديم الاسم على الفعل في جملة الشرط المسبوقة بجملة الجواب.
 الوجه الأول للظاهرة: وُزِدَ في أربعة وأربعين موضعًا في ثلاث الصور التالية:
 الصورة الأولى: وتقع في أربعة عشر موضعًا، وهي كالاتى:

أداة الشرط + جملة الشرط (مبدوءة باسم + فعل ماض) + جملة الجواب (مبدوءة بفعل ماض).

الصورة الثانية: وترد في موضع واحد، وهي كما يلي:

أداة الشرط + جملة الشرط (مبدوءة باسم + فعل ماض) + جملة الجواب (مبدوءة بفعل مضارع).

الصورة الثالثة: وقوامها ثمانية وعشرون موضعًا، وتركيبها:

أداة الشرط + جملة الشرط (مبدوءة باسم + فعل ماض) + جملة الجواب (مقرونة بالفاء).

وتأتى اسمية، وطلبية، ومبدوءة بـ«ما» النافية، ولا «النافية»، وليس.

ويمثل الصورة الأولى البيت التالى:

إذا المرّة لم ينهض لما فيه منجته

قضى وهو كلٌّ في غنور العوائق^(١)

وتتضح الصورة الثانية في قوله،

إنا إذا ما الحزبُ سبَّ سعيها

نحى النزيل، وتمنّع الجيرانا^(٢)

أما الصورة الثالثة فمثالها البيت:

إذا القلب لم يلضرك في كل موطن

فما السيف إلا آلة خلتها إد^(٣)

ونلاحظ في كل الصور السابقة تقدّم الاسم على الفعل، وقد ورد هذا في أربعة وأربعين موضعًا، وتنوعت جمل الجواب، فهي فعلية فعلها ماض، وفعلية فعلها مضارع، ومقرونة بالفاء.

(١) الديوان، ج٢، ص ٣٦١.

(٢) الديوان، ج٤، ص ٨٧.

(٣) الديوان، ج١، ص ٢١٧.

وتقديم الاسم على الفعل يعنى أن الاسم المقدم ذو أهمية خاصة عند الشاعر حتى إنه يقدمه على الفعل، فالاسم وما يرتبط به من معانٍ أكثر أهمية من الفعل. كما أن البدء بالاسم يثير الذهن ويلفت الانتباه.

وتتضح لنا الفكرة السابقة إذا قارنا بين التركيبين التاليين:

- إذا القلب لم ينصرک .

- إذا لم ينصرک القلب .

فعندما قلب التركيب فتأخر الاسم وتقدم الفعل صار المعنى خاليًا من التأكيد، وأصبح معنًى عاديًا يمضى دون أن يترك أثرًا في نفس متلقيه. ويتضح الفرق بين المعنيين إذا توقف الكلام عند الاسم في الجملة الأولى، وعند الفعل في الجملة الثانية، ففي التركيب الأول هناك تشويق أحدثه البدء بالاسم وتقديمه على الفعل، مما أثار الاهتمام وجعل المتلقى منتظرًا ما يرتبط بهذا الاسم من أحكام ومعانٍ.

أما في التركيب الثاني فيقلُّ فيه عنصر التشويق، فإطلاق الفعل وحده لم يُحدث الإثارة الذهنية التي أحدثها تقديم الاسم.

الوجه الثاني للظاهرة؛ وفيها يتقدم الاسم على الفعل في جملة الشرط المسبوقة بجملة الجواب.

ويأتى هذا في خمسة عشر موضعًا.

ويمثل هذا الوجه من الظاهرة هذا البيت:

لَا تَنْفَلِنِ إِذَا أَمْنِيَةً عَرَضَتْ فَأِنَّمَا الْغَيْثُ فِي هَذَا الْوَزَى لَقَطٌ^(١)

ويتفق وجهها الظاهرة في تقدم الاسم على الفعل في جملة الشرط، ومغزى التقدم في كلا الوجهين واحد، ويختلفان في أن هذا الوجه ينفرد بأن جملة الجواب قد تقدمت على جملة الشرط، مما يعنى أن المعنى فيها هو الأهم لدى الشاعر؛ لذا يقدمها ثم يقيدها بجملة الشرط.

(١) الديوان، ج٢، ص١٩٩.

النتائج

يكون إجمال النتائج العامة للتقديم والتأخير فيما يلي:

- ١- قد يتقدم المفعول لأنه أعظم شأنًا من الفاعل، أو لأنه أشمل منه، أو لوقوعه في أسلوب استثناء، أو في أسلوب استفهام. وقد يتقدم المفعول به، لأنه اسم موصول وتقديمه يأتي بغرض المبالغة في الوصف، كما قد يتقدم لأن تأخيره يؤدي إلى حدوث خلل في التركيب. وقد يكون تقديمه ضروريًا لتحقيق التجانس اللفظي بين شطري البيت والمزوجة بينهما.
- ٢- أما عند تقديم المفعولين على الفاعل فإن دور الفاعل يقل وأهميته تتضاءل بحيث إن المعنى لا يتأثر بحذفه.
- ٢- يأتي تقديم الحال للتأكيد على المعنى الذي يبرزه هذا الحال، أما تقديم المفعول لأجله فيعنى التركيز على الحدث.
- ويتقدم المفعول به والمفعول لأجله معًا في صدر البيت وعجزه فيتحقق - إضافة إلى أهمية المقدم - التجانس بين الصدر والعجز.
- ٣- إن تقديم المفعول به والجار والمجرور معًا يجيء لأهمية أولهما، ولأن تقديم الثاني يؤدي إلى التفصيل والتوضيح. أما إذا عكس ترتيبهما بحيث يرد الجار والمجرور أولاً ثم المفعول به ثانيًا فهذا يعنى إفادة التأكيد الذي يحققه الجار والمجرور والتحقيق الذي يبرزه المفعول به المقدم. أما تقديم الجار والمجرور وحدهما فقد يُراد به بيان مصدر الحدث، أو الإشارة إلى التحديد المكاني. وقد يتقدم الجار والمجرور في أسلوب القصر فيفيد الاختصاص. ويتعدد الجار والمجرور في السياق بغرض التحديد والتفصيل.
- ٤- يأتي تقديم التمييز بهدف التركيز على معناه، أما تقديم الظرف فيجىء للتأكيد إما على التحديد الزمني، وإما على التحديد المكاني.
- ٥- إن تأخير الفاعل ووقوعه مقطعًا للبيت يعنى التركيز على معاني العناصر التي تقدمت والمحافظة على القافية في القصيدة. أما تأخير المفعول به ووقوعه مقطعًا للبيت فيأتي بغرض المحافظة على القافية.
- ٦- إن تأخير خبر المبتدأ وتأخير مقول القول بصورة لافتة يجعل المتلقى ينسى أن ثمة خبرًا أو مقولًا للقول عليه انتظارهما، إلا أن هذا يعنى حضور ذهن المرسل وتيقظه، إذ على

- الرغم مما اعترض من تراكييب سواء كانت بين المبتدأ والخبر أم بين القول ومقوله، فهو يقظ لطبيعة التركيب، وعلى وعى بماهية البنية النحوية للأبيات وإن طالّت.
- ٧- قد يؤدي تقديم المتعلقات وتأخيرها إلى ثقل في التركيب.
- ٨- إن تقديم الاسم على الفعل في جملة الشرط يعنى أن الاسم المقدم ذو أهمية خاصة، كما أن البدء بالاسم يحدث نوعاً من التشويق.

* * * * *